

الأساطير، مفهومها ووظائفها، مقارنة فلسفية

Myths, their concept and functions, Philosophical approach

معيرش موسى* جامعة عباس لغرور خنشلة، الجزائر

momaireche@univ-khenchela.dz

تاريخ النشر: 2024/06/30

تاريخ القبول: 2024/06/10

تاريخ الإرسال: 2024/02/25

ملخص:

تسعى هذه الدراسة لإثارة مشكلة معرفية وفلسفية مهمة، ترتبط أساسا بثقافة الانسان التي أصبحت تهتم بها الدراسات الحديثة في مختلف المجالات، ونقصد بها الأسطورة، والتي رغم مرافقتها للإنسان منذ بدايته الأولى في هذا الوجود. غير أنها تظل حقلا معرفيا مثيرا للاهتمام بين الباحثين في مختلف ميادين المعرفة مثل: فلسفة الدين، الأنثروبولوجيا، الفلسفة، علم الاجتماع، وفقه اللغة، وحتى علم النفس، غير أن اختلاف زوايا الرؤيا وتعددتها، أثاروما زال يثير الكثير من الغموض حول مفهومها ووظيفتها وأصنافها.

مما يدفعنا للطرح جملة من الأسئلة لعل أهمها، ماذا نقصد بالأسطورة؟ وما هي أصنافها؟ وأخيرا، هل لها وظائف تؤديها، أم أنها مجرد قصص وأحاديث قديمة لا أصل لها، يتسلى بها الناس في أوقات فراغهم الطويلة؟ ولا شك أن الإجابة عن هاته التساؤلات نجدها تتنوع بتنوع ميادين المعرفة التي تعالجها، وهو أمر يزيد الغموض والجدل حولها بدلا من أن ينهيه. مما يفتح مجالا للفلسفة للاقتراب من الموضوع ودراسته.

الكلمات المفتاحية: الأسطورة، الخرافة، الفلسفة، الأنثروبولوجيا، الميثولوجيا.

Abstract :

This study seeks to address an important epistemological and philosophical issue primarily related to human culture and a topic that is a focal point in modern studies in various fields; mythology. This concept has accompanied humanity since its earliest existence. Despite its long history, mythology remains an intriguing concept for researchers in philosophy of religion, anthropology, philosophy, sociology, linguistics, and psychology. However, the diversity of perspectives and interpretations continues to shroud mythology in mystery regarding its definition, functions, and classifications. This raises questions: What is meant by mythology? and its categories? Does it serve specific functions, or are these merely ancient baseless stories, enjoyed by people during their leisure time? The answers to these questions vary across the diverse realms of knowledge addressing mythology, adding complexity and ongoing debate to the subject rather than providing definitive conclusions. This circumstance opens the door for philosophy to approach and study the topic.

Keywords: Mythe, folklore, mythology, philosophy, anthropology,

مقدمة:

من الناحية التاريخية، يعود استخدام البشر للأسطورة ومعرفتهم بها لزمان بعيد، أو بالأحرى للبدايات الأولى لظهور الجنس البشري ككل. وهذا ما يفسر قدمها وارتباطها بالإنسان ومع تعدد الأساطير، وتعدد مجالاتها وموضوعاتها، وكثرة الدراسات حولها، فهي ما تزال تتصف بالغموض وتحتاج لإلقاء الضوء حولها لإثارتها، والكشف عن حقيقتها وأدوارها، فمن السذاجة أن نعتقد أن واضعها قصدوا بها التسلية في أوقات الفراغ الطويلة التي كان يتمتع بها الإنسان في عصوره القديمة. الباحثين.

وقد تضاعف الاهتمام بهذا الموضوع في الأزمنة الحديثة بين المختصين في دراسة التراث والحدائق على حد سواء، وهذا ما يتبين لنا مما وقفنا عليه من دراسات وبحوث عند مختلف التيارات والمدارس الفلسفية والأنثروبولوجيا وحتى النفسية والأدبية، حيث أصبحت تفرد لها مباحث أساسية وعديدة، ساعية من خلال ذلك للكشف عن مكنوناتها وجوهرها.

مما يدفعنا للتأكيد على أن الأسطورة، رغم أنها لم تظل بعيدة عن البحث كما كانت في السابق، حتى أن صار هناك علماء، يهتم بدراستها، مستخدما مناهج خاصة، يطلق عليه اسم

الميثولوجيا، أو علم الأساطير، إلا أن الاختلاف حولها، يبقى يميزها، وبالتالي تصبح الحاجة لمقاربة فلسفية، تعمل على إزالة بعض اللبس الذي يحيط بها أمرا مهما ومحبذا. خاصة ما تعلق بمفهومها، والوظائف التي تؤديها، وهذا ما نسعى للقيام به فيما يأتي.

1: إشكالية مفهوم الأسطورة.

يشكل مفهوم الأسطورة مدخلا مهما في دراستها، لعدة مبررات، منها، تميزها عن غيرها من ميادين المعرفة العديدة المشابهة لها، مثل: الفلسفة، الدين. كما أن تحديد مفهومها، يضع الباحث في مجالها الدقيق، حتى لا يخلط بينها وبين غيرها.

ونظرا لشعب مجالات استخدامها، فمن الضرورة بمكان معرفة، المدلول اللغوي، والاصطلاحي على حد سواء، ذلك أن سؤال المفهوم من الأسئلة الأساسية في البحث العلمي، تجنباً للخلط الذي يمكن أن يحدث حول المصطلح مما يقود لتعدد المفاهيم وتناقضها، كما أسلفنا، هذا من جهة، أما إذا كان الأمر بموضوع مثل الأسطورة تجتمع حوله ميادين معرفية مختلفة ومتباعدة، مما يضاعف الحاجة لتحديد المفهوم.

إذ لا يكاد يخلو معجما لغويا من مادة يفسر ويشرح فيها، المدلول اللغوي لمصطلح الأسطورة، غير أننا نود أن نتساءل هنا، إن كان هذا اللفظ في اللغة العربية، حديث أم قديم، عربي أم معرب؟

فإذا ما عدنا لمعاجم اللغة العربية، ومصادرها الأصلية، وخاصة القرآن (جميل، 1981) نجد أن هذا اللفظ معروف، فقد ذكره القرآن الكريم ، في عدة آيات كريمة من عدة سور ، ويكفي هنا أن نذكر بعض هاته الآيات، لنرى استخداماتها القرآنية، والمعاني المقصودة من وراء هذا الاستخدام ، منها قوله تعالى في سورة الأنعام وبالضبط في الآية الخامسة والعشرون: "وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" ، وقوله تعالى في الآية الخامسة من سورة الفرقان: "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" .

والأمر يتكرر في بقية السور الأخرى بهذا المعنى، فهو عندما يذكر الأسطورة يربطها بتفكير وتفسير الأمم السابقة، ويسميهم بالأولين، مما يكشف لنا أن النص القرآني عندما أنزل، وجد أن المجتمع العربي ما يزال يعتمد على الأسطورة، ويقدها، وتشكل جزءا مهما من بنيته المفاهيمية والتنظيرية والتبريرية، فلم يرد أن يتجاهلها، وهذا ما يزيد من رغبتنا في التعرف على الوظائف التي تؤديها.

نعود للمفهوم اللغوي لمصطلح الأسطورة، فقد ذكره جميل صليبا، في معجمه الفلسفي، بكونه الحديث الذي لا أصل له (صليبا، 1981)، وهي عند الزمخشري، عبارة ما كتبه الأولون،

دون أن يكون حقيقة (عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 1987)

ويقابل اللفظ في اللغة الإنجليزية مصطلح Myth، وهو لفظ مأخوذ من اليونانية، وبالضبط من لفظ Metos (معن وواخرون)، وقد جاء في شرحه أنه يتخذ معنيين.

المعنى الأول، عبارة عن قصة قديمة، كقولنا الأساطير اليونانية.

المعنى الثاني، عبارة عن اعتقاد غير صحيح، كأن نقول: يجعل المال من صاحبه سعيدا (oxford, 2012).

رغم أن الأسطورة عبارة عن تصور قدمه القدماء، معبرين فيه عن رؤى وأفكار تعبر عما يعتقد أصحابه، دون أن تكون لها تفسير قائم على أسس منطقية أو تجربة معاشه. ورغبة منا في معرفة المفهوم الاصطلاحي لمصطلح الأسطورة Mythe، عدنا للمعجم الفلسفي Vocabulaire de la philosophie، فوجدناه يقول، أنه يمكن النظر لهذا اللفظ من ثلاثة زوايا، وهي (Gerard)

- الزاوية الأولى، أن الأسطورة عبارة عن سرد كتابي أو شفوي، يتعلق بأصل الكون، ودور الكائنات الخارقة ونسبها، وتعبير عن رغبة في تفسير الظواهر الخارقة الطبيعية، بإرجاعها لإسقاط الرغبات الواعية وغير الواعية للإنسان.

- الزاوية الثانية، الأسطورة، عبارة عن مجموعة من التمثلات، ذات القيمة العاطفية العالية، سواء أكانت كلمة، أو رمز، وحتى صيغة، تفرض نفسها على خيال الإنسان. -الزاوية الثالثة، الأسطورة من ناحية جدلية، هي عبارة عن سرد يختلف الناس حوله، يقبله البعض ويؤمن به البعض الآخر.

أما في معجم جميل صليبا الفلسفي، فقد تحدث عنها، مقدما لها، عدة معان هي:

- أن الأسطورة عبارة عن قصة خيالية، ذات أصل شعبي، تمثل فيها قوى الطبيعة، بأشخاص يكون لأفعالهم ومغامراتهم، معان رمزية (صليبا، 1981)، وهذا ما وقفنا عليه أيضا في معجم لاروس الفلسفي، وخاصة في قوله: "قصة تخيلية، نقلت عن التقاليد، تعبر عن أحداث أبطالها، شخصيات (آلهة، أنصاف آلهة، أبطال)، تجسد وظيفة بطريقة رمزية لقوى طبيعية، تمثل أشكال مادية أو أخلاقية، كليات ثقافية أو مفاهيم مجردة (موسى، 2018).

- كما يمكن أن تكون الأسطورة، تعبيرا عن تفسيرات خرافية، لوقائع تاريخية حقيقية، لم يجد العقل البشري تفسيراً صحيحاً لها، ومن أمثلة هاته التفسيرات الخافية لوقائع فعلية، أسطورة العصر الذهبي، أسطورة الحية المفقودة (صليبا، 1981)

- الأسطورة، عبارة عن صورة شعرية أو روائية، تعبر عن مذهب فلسفي، بطريقة رمزية، تختلط فيها الحقائق بالأوهام، كما هو شأن أسطورة الكهف الأفلاطونية، التي حاول من خلالها صاحبها تفسير المعرفة، أو بالأحرى تفسير عالمي الواقع والمثل (صليبيا، 1981). وهو نفس المعنى الذي يذهب إليه بيومي مذكور، عندما يقول عن الأسطورة، أنها: "تستخدم في عرض مذهب أو فكرة عرضا شعريا أو قصيا، مثل أسطورة الكهف عند أفلاطون" (موسى، 2018).

- الأسطورة، "في الاستخدام الفلسفي، هي تعبير مستعار عن فكرة أو عقيدة، بشكل أفضل أحيانا من الخطاب العقلاني، والتفهم بشكل أساسي وله سلطة تذكيرية" (صليبيا، 1981)

- الأسطورة، هي: "صورة المستقبل الذهبي، الذي يعبر عن عواطف الناس، وينفع في حملهم على إدمانها" (موسى، القيم في الفلسفة اليونانية مشكلات وأعلام، 2018)، وهو المفهوم الذي نجده عند رولان بارت، حيث يعرفها، بأنها: "عبارة عن تمثيل (لصور، افكار، خطابات) تفسر بطريقة خيالية طموحات وأمال مجتمع عصري، وتمتاز بأبعاد معينة (قيم مفروضة)" (موسى، القيم في الفلسفة اليونانية مشكلات وأعلام، 2018).

وبتعدد مفاهيم الأسطورة، فإنه يمكن القول، بأنها تعبير غير منطقي، ولا علمي، ولا حتى فلسفي، للحوادث التي يعجز العقل الإنساني عن إيجاد تفسيرات منطقية لها يمكن القبول بها، وهذا ما جعل لكل أمة أساطيرها، التي تعبر عن انشغالاتها المعرفية والوجودية وحتى الدينية، كما تسعى لكي تقدم بطولتها وانتصاراتها، ومعتقداتها من خلالها، وفقا لتصورات غير مترابطة منطقيا، ولا يمكن التحقق منها بالطرق العلمية أو العقلية.

غير أن هاته المفاهيم والتصورات التي ذكرناها انطلاقا مما قدمته الموسوعات والمعاجم، رغم محاولتها النظر للأسطورة من وجهة نظر إيجابية، فهي تبقى تنظر إليها من خلال رؤية العقل الإنساني المعاصر، وهذا ما يجعل هاته الرؤية تحمل شكل من أشكال التحامل، إذ تفقدها هاته الرؤية دورها ووظيفتها التي وضعت لها في زمان ظهورها، وحتى قيمتها المعرفية، فنزع صفة العقلانية عنها، يمثل مصادرة معرفية لا نراها مقبولة منطقيا، ولا حتى علمية.

إذ يجب النظر للأمور في إطارها الزماني والمكاني، مع مراعاة تطور العقل الإنساني الذي أنتجها في ظروف بالغة التعقيد، لا نستطيع إدراكها بشكل كامل، وإنما كل ما يمكننا التأكيد عليه أنها كانت تعبير عن تجليات العقل الإنساني في المرحلة التي ظهرت فيها هاته الأساطير. ويظهر أن هاته الرؤية، نتيجة لتأثرنا بتقسيم تطور العقل البشري، الذي قدمه أوغست كونت، والذي يتلخص في أن البشرية في سعيها نحو الكمال، مرت بثلاثة مراحل تاريخية كبرى، وهي:

-المرحلة اللاهوتية.

-المرحلة الفلسفية.

-المرحلة العلمية.

مع تأكيدنا هنا أن رؤية أوغست كونت، وبغض النظر عن مكانتها في شرح تطور العقل الإنساني، تظل فكرة أو بالأحرى فرضية، لا يمكن التسليم بصحتها، بشكل مطلق، أو عدم الاعتراض على نتائجها، فالنظر إلى الماضي البعيد، وخاصة منتجات العقل البشري في بدايته، يجب أن تراعي البيئة التي تكون فيها هذا العقل، وإلا انتهينا لنزع العقل عن الانسان في ذلك العصر، وهذا ما يتناقض وطبيعة الانسان بصورة عامة.

ما يمكن أن نقوله عن المراحل التي أوجد فيها الإنسان الأسطورة. يمكن أن يقوله إنسان القرون القادمة عنا أيضا، فهو سيصفنا دون شك بالتفكير الخرافي غير المعلن، والأسطوري، وسيربط بين رؤيتنا، ورؤى أسلافنا الذين ننتقدهم. بالنظر للتطور المعرفي الذي سيكون عليه، والتأخر الذي نحن عليه رغم اعتقادنا أننا نمثل أقصى درجات التطور، لكن في الحقيقة، فإن درجات التطور التي نصفها، فهي مقارنة بسابقينا، وبمعصرنا، ولا أحد من عقلاء البشر، يقول إنه يمثل إنسان المستقبل، وأن نهاية التطور العلمي والعقلي هو الآن.

ذلك، أنه مثل ما شهدت القرون الحديثة ظهور علوم جديدة على أنقاض الصراع بين: الدين والعلم والفلسفة، فقد تظهر علوما جديدة أخرى، لا يمكن تقدير مدى تأثيرها وعلاقتها بسابقتها من العلوم، وهاهو الذكاء الاصطناعي، لا يتوقف عند جيل محدد، ولا مجال علمي دون غيره، ومن ثم يمكن القول بأنه سيأتي يوما يقال عن علم اليوم: خرافة الماضي.

2-الأسطورة من وجهة نظر العلم الحديث:

كما أسلفنا فإن هناك بوادر لاهتمام الباحثين في العصر الحالي بدراسة الأسطورة بشكل مختلف عما اعتادت الدراسات التقليدية، سواء من حيث المنهج أو المضمون، رغم أن عصر التنوير الأوروبي اتخذ منها موقفا سلبيا، بعدما أكد النظرة التقليدية إليها باعتبارها دون فائدة، غير أن ما أضافه هنا هو تعميم رؤيته للأسطورة على الدين ككل.

غير أن تزايد الاهتمام بالأسطورة، تضاعف مع بداية ظهور العلوم الإنسانية واستقلالها عن الفلسفة، بعد تحولت هذه لموضوع من موضوعات العلم، خاصة بعد عملية الفصل التي تمت في القرن التاسع عشر بين اللوغوس Logos والميتوس Metos، (معن و آخرون) أي بين ما ينتمي للعقل، وما ينتمي للدين.

دون أن نهمل ميزة هذه المرحلة – التي كانت ثورة في كل الميادين – بعد أن عرفت ظهور مناهج وعلوم مختلفة تعالج الظواهر كل من زاوية اختصاصه، ولم تكن الأسطورة بمعزل عن هذا الاهتمام باعتبارها موضوعا جديرا بالدراسة، وظاهرة اجتماعية ثقافية.

من جهة أخرى، يمكن النظر للأسطورة من خلال خمسة تصورات معرفية متكاملة، وغير متناقضة، وهي:

1-2- علم الاجتماع:

حيث نجد هذا العلم يهتم اهتماما ملحوظا بهذا اللفظ وما يعبر عنه لذا نجده ينظر للأسطورة نظرة تتناسب مع موضوعه، ويقدمها بكونها ظاهرة اجتماعية قديمة، ماتزال متواجدة لحد اليوم، وبالتالي فهي من المباحث المهمة فيما يعرف بعلم الاجتماع الثقافي، وفي هذا السياق، يمكن العودة لما كتبه مالنوفسكي.

فهذا الأخير، ينظر إليها بحسب الدور الذي تلعبه، وبالتالي لا يمكن الاستغناء عنها، وهذا ما يجعلها تندرج ضمن الأولويات الإنسانية الثلاث، والتي تتكون مما يأتي:

- الحاجات العضوية الشخصية، وهي حاجات لا يمكن الاستغناء عنها، وتشمل كل من: المأكل والملبس، الأمن والتناسل وغير ذلك، مما يقود لاستمرارية الحياة البشرية.

- إرضاء الحاجات العضوية، وهي الأولويات التي تساهم في بناء وإرساء الحاجات العضوية، مثل: نظام الإنتاج، تكوين الأسرة، وغير ذلك.

- وأخيرا تأتي الأسطورة، باعتبارها تساهم في تماسك المجتمع، كما هو شأن الدين والفن والعلم، بما تضمن من روابط مشتركة بين مكونات المجتمع بصورة عامة.

فهي بما تقدمه، تلعب دورا فاعلا في تماسك المجتمع، بما تسهم به في تبرير وترسيخ العقائد التي تؤمن بها الجماعة، وتشكل محور النظام الاجتماعي القائم، وليس التعبير عن الدهشة بمختلف أشكالها: علمية، فلسفية، أدبية (معن وأخرون).

2-2 التحليل النفسي:

من وجهة نظر علم النفس، وخاصة من خلال ما كتبه أنصار مدرسة التحليل النفسي بعامة، وفرويد بخاصة، باعتبار أن الأسطورة ماهي إلا تحقيق لرغبة دفينية.

والواقع أن العودة لبعض ما كتبه فرويد في هذا المجال، يكشف لنا عن رؤية مختلفة للأسطورة عن الرؤى الأخرى، ولكن هاته الرؤية لا تنفصل عن تصور مدرسة التحليل النفسي، لجوانب الحياة المختلفة للانسان.

خاصة إذا أخذنا في الاعتبار، ما جاء في أعماله الثلاثة الأتية:

- تفسير الأحلام.

- الطوطم والطابو.

- موسى والتوحيد.

باعتبار أن هذه الثلاثية –حسب وجهة نظرنا- تشكل رؤية متكاملة لنظرية في التحليل النفسي بعامة والأسطورة بخاصة، ووفقا لرؤيته فالرجل يوسع دائرة الأسطورة بشكل يتناسب مع النزعة الوضعية، وهذا نجد أن رؤيته تجعل من التراث الديني اليهودي تراثا أسطوريا، لا يختلف عن التراث الأسطوري المصري أو غيره، وبالتالي ليس هناك ما يجعله مميزا ومختلفا عن غيره، وبهذه الرؤية نجد الرجل يذهب بعيد في تطبيق نظريته عن الديانة اليهودية، حتى أنه لا يتوقف عند حد معين، رغم أصوله اليهودية المعروفة، ولعل هذه ما مكنه من الإحاطة بمختلف معتقدات هذه الديانة.

فجعل من شخصية النبي موسى موضوعا لتطبيق نظريته، عاملا على نزع القداسة عنها، بمحاولته إعادة تشكيل هاته الشخصية التاريخية والتوراتية، فيعرض في هذا الجانب ما يعتبره كشفا جديدا، وهو أن ما يعتبره اليهود أباً ومحررا، ونقصد به النبي موسى ما هو في حقيقة الأمر إلا شخصية مصرية وليست عبرانية أعطاهم العبرانيون هالة أسطورية ونسبوا إليها إلههم، حتى يعطوا لأنفسهم مبررا وجوديا يميزهم على الأمم الأخرى (فرويد، 1986)، وبالتالي فقد جعلوا من رغبتهم في الحرية واغتصاب أرض الآخرين، مبررا لاختلاق الأصل العبراني لهاته الشخصية المحورية.

2-3 من وجهة نظر الأنثروبولوجيا:

اهتمت الأنثروبولوجيا اهتماما كبيرا وخصوصا بالأسطورة، بوصفها شكلا من أشكال الثقافة عند الإنسان (معرش، 2017)، بعد أن بدأ العديد من علماء الأنثروبولوجيا يعيشون لسنوات بين الشعوب البدائية، وهذا ما يتجلى في دراسات مرغريت ميد وغيرها، وفي هذا السياق يمكن الاستئناس بما قدمه ليفي سترواس، فالأسطورة لا تصف الواقع الصادرة عنه، ولكنها تمثل تأمل فيه (معن و وآخرون).

2-4 من وجهة نظر الفلسفة:

من وجهة نظر فلسفية، خاصة أن الفلسفة نظرت للأسطورة من زوايا مختلفة، فقد استخدمتها في تفسير رؤيتها، كما شأن أفلاطون، فإذا أخذنا أعمال هذا الأخير، نجده يستخدم هذا المصطلح في العديد من محاوراته منها: الجمهورية (أفلاطون، 2004)، ذلك أن الرجال كان على دراية بها، مما يبين لنا بوضوح معرفة أهل أثينا بها. أما فلسفة الأنوار وانتقدها، حتى أنها صنفها مع الدين، كما هو شأن وجهة نظر فلسفة التنوير.

فهذا الأخير ووصف الأسطورة بكونها وسيلة لخداع الناس، وقد تطورت هذه النزعة بشكل ملفت للانتباه، خاصة بعد المنهج الجديد الذي اعتمد على نقد الأديان، سواء مع سبينوزا في

كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة، أو مع كل من ماركس، فيورباخ ونيتشة الذين أكدوا في أعمالهم على رفض فكرة الأسطورة ككل (معن وأخرون).

2-5 من وجهة نظر فقه اللغة:

لم يهمل فقهاء اللغة إشكالية الأسطورة وفي هذا السياق يمكن العودة لكتابات ماكس مولر ورولان بارت، حيث نقف في هذا السياق على رؤى متقدمة، فالنظر إلى الأسطورة أصبح بطريقة مختلفة، عن الرؤى التقليدية التي كانت تجعل منها محصورة في قصص خيالية باطلة، فهي بالنسبة لماكس مولر عبارة عن مظهر من مظاهر اللغة، وهذا ما أوضحه في كتابه *mytologies comparees*، ويضيف بأن هذا المظهر ليس إيجابيا، باعتبارها مصدرا مهما للأوهام والأباطيل والخرافات، رغم أن هناك جانبا آخر للغة، وهو الجانب المنطقي والعقلاني.

أما رولان بارت، فقد ذهب في كتابه أسطوريات، إلى أن الأسطورة عبارة عن كلام، غير أنه يستدرك، أنه ليس كل لغة أسطورة، وإنما يجب أن تتوفر جملة من الشروط لتكون كذلك، أهمها:

- بما أن الأسطورة عبارة عن منظومة تواصل، وبالتالي فهي رسالة، وهي ليست فكرة أو موضوع ولا حتى مفهوم، وإنما هي صيغة من صيغ الدلالة، إضافة إلى ما سبق فهي شكل، له حدود تاريخية وشروط استخدام.

- تحدد الأسطورة بالطريقة التي تقدم بها، بحسب الزمان الذي تقال فيه والمكان (بارت). ومنه يمكننا القول إن ميادين المعرفة الحديثة سعت بشكل ملحوظ للتعامل مع الأسطورة بوصفها ميدانا معرفيا خصبا لا يمكن تجاهله، وفي الوقت لا بد من التعامل معه بطريقة حديثة تتوافق مع المنهج الجديدة.

3-وظائف الأسطورة وتصنيفاتها:

الباحث في تاريخ الأسطورة، وموضوعاتها، يكتشف أنها تشمل ميادين الحياة المختلفة، وتحاول أن تقدم تفسيرات لها، ذلك أن تدوين الأسطورة، لا يمكن أن يكون عبثيا، أو أنه يأتي من أجل التسلية، وملئ الفراغ. وإلا ما وجدنا الاهتمام الكبير الذي أولاه الناس لها في مختلف العصور والأمصار.

حتى أنه يمكننا القول، بأنه لم توجد أمة من الأمم، دون أن تكون لها أساطيرها الخاصة، فإذا كان أرسطو عرف الإنسان بوصفه حيوانا عاقلا، والأنثروبولوجيا عرفته بأنه حيوانا متدينا، فإنه يمكننا القول بأن الإنسان حيوانا أسطوريا.

مما يقودنا للتساؤل عن الأشكال المختلفة التي تتخذها، والوظائف المنتظر منها تأديتها، سواء في المجتمعات التي تكونت من أجلها، أو تلك التي ورثتها عن أسلافها، وهذا ما يفسر سبب انتشارها بين الناس وعدم اندثارها، وبالتالي نقلها من جيل إلى جيل.

3-1 تصنيف الأسطورة:

تصنيف الأسطورة مهم جدا، بغض النظر عن الأسس التي تنطلق منها في عملية التصنيف وهذا ما نسعى للوقوف عليه، بهدف تسهيل التعامل معها وإدراك مغلقاتها وخفاياها، فالفهم يتطلب التصنيف والتحليل. وفي غيابات تصنيفات سابقة، يمكننا الانطلاق من خلال الموضوعات التي تعالجها، معترفين بتعددتها وتنوعها:

- فهناك أساطير تعالج حياة الالهة وعلاقة بعضها ببعض.

- وهناك أساطير تتحدث عن نشأة الكون.

- هناك أساطير تتحدث عن حياة الناس، وعلاقتهم ببعضهم البعض.

- هناك أساطير تتحدث عن ملاحم أمم وبطولات لشخصيات.

وبناء على ما سبق يمكننا الانطلاق من عدة معايير وليس من معيار واحد لتصنيف الأساطير وصولا لعدة تصنيفات وليس لتصنيف واحد، أو على الأقل تصنيفها لصنفين، وهذا على النحو الآتي:

- بحسب أبطالها، أي الشخصيات التي تتحدث عنها، وفي هذا السياق، يمكن أن نقسمها

إلى قسمين:

أ- القسم الأول، يتعلق بالأساطير ذات الشخصيات الخارقة، وفي هذه الحالة، نجد أن أبطالها آلهة أو أنصاف آلهة، وفي هذا الشأن يمكننا أن نذكر عشرات الأساطير، منها أساطير الخلق بصورة عامة، مثل أسطورة الخلق البابلي، أسطورة الخلق المصري، وغيرهما، علاوة على أسطورتى: هرقل وكيبويد اليونانيتين، وغيرهما من الأساطير الأخرى.

ب - القسم الثاني، يتعلق بالأساطير التي تجسد أبطال وملامح الشعوب، كما هو شأن الأساطير التي دونها، هوميروس، وفرجيل، وغيرهما، وهي أساطير تتحدث عن تاريخ الشعوب التي دونت فيها، فتصنف انتصاراتها، ومآسها، وقصص البطولة والحب، وتمجد شخصيات بعينها.

- أما التصنيف الثاني، الذي يمكن أن نستخدمه كأداة لتصنيف الأساطير، فيحسب موضوعاتها، والمشكلات التي تسعى لتفسيرها، وفي هذا السياق، يمكن أن نتحدث عن عدة أنواع، أو أصناف، منها:

أ- القسم الأول، الأساطير التي يكون موضوعها، خلق الكون، والإنسان.

ب -القسم الثاني، الأساطير التي يكون موضوعها، حياة الآلهة، ويوميائهم، وعلاقة بعضهم ببعض، في مختلف المجالات: الحب، الحرب، السلم، الغيرة، الفن، الجمال.

ج -القسم الثالث، الأساطير التي يكون موضوعها، تفسيرها لبعض المسائل، أو بالأحرى تمثيلية، تستخدم لشرح أفكار فلسفية، يصعب على المتلقي فهمها، ومنها، أسطورة الكهف الأفلوطنية، التي سعى فيها أفلاطون لوضعها، لتوضيحه قصده بعالم المثل، أسطورة الجندي آر، التي حاول فيها أفلاطون أيضا، أن يوضح فكرته حول فكرة أن المعرفة عبارة عن تذكر.

- الأساطير، التي يكون موضوعها، ملاحم الشعوب، وبطولاتها، كما هو شأن الإلياذة لهوميروس، والانبياء لفيرجيل، وحتى نوضح هذا الأمر يكفي أن ننقل بعض ما جاء في مقدمة ترجمة الانبياء للغة العربية، حيث كتب المترجم: "إن الانبياء التي نقدمها بحلتها العربية اليوم ... هي في الأصل ملحمة شعرية للاتينية، وهي تدوين لأحداث أتت تنمة لأحداث الإلياذة مثل الأوديسة. ومع أن مؤلف الملحمتين السابقتين هو هوميروس اليوناني، ومؤلف هذه هو فرجيل الروماني، فإنها تتصل ببعضها اتصالا وثيقا، إذ أنها تتيح لنا أن نتابع ما وقع للأمير الطروادي انياس الذي نجا بعد سقوط مدينته طروادة" (فرجيل).

في كل الحالات، يمكننا القول، أن الأسطورة، يمكن تصنيفها، تصنيفات مختلفة، بحسب وجهة النظر التي ننطلق منها، وأن تنوع التصنيفات يكشف عن الثراء الفكري والتراثي لها، ويزيد من أهميتها، ويضعها ضمن التراث البشري المنقول الذي تفتخر به الشعوب وتقدره، وتسعى التنظيمات ذات الصبغة الثقافية للمحافظة عليه مثل اليونان.

كما أن تنوع هاته التصنيفات التي وضعناها، تؤكد لنا أن البشرية حتى في مراحلها الأولى كانت تتمتع بخيال جدير بالاحترام، ميزها عن بقية المخلوقات الأخرى التي شاركها الحياة، ولم تترك لنا ما يدل على وجودها وأهميتها إلا ما نقلها لنا الإنسان في أدبياته، أو بقايا لعظام وهياكل عظمية تجمدت وترسبت بفضل عوامل الطبيعة المختلفة.

هذه الخاصية الإنسانية تكشف لنا أن الحضارات التي أنشأتها البشرية، تعبر عن خصوصيتها، كما تكشف تفرد العقل البشري، وقابليته للتكيف مع مختلف الأوضاع التي يكون فيها، وقدرته على صنع الاستثناء والتنوع، وفي الوقت نفسه يعطى لنا فكرة على أن إبداع الإنسان لا حدود له.

3-2 وظيفة الأسطورة:

بغض النظر، عن مفهوم الأسطورة، فإن الشعوب التي اعتمدت عليها، والفلسفات التي استعانت بها، كانت تعتبرها مهمة جدا في حياتها، فهي ليست تمثل لحكايات الجدات لتمضية

الوقت، وإنما هي تعبير حقيقي عن وظائف مهمة كانت تؤديها، مما يدفعنا لإبرازها في عموميتها، وفي هذا السياق، يمكننا أن نشير لبعضها، على النحو الآتي:

أ-إزالة الغموض الذي يحيط بالظواهر التي تعالجها، ذلك أن الأسطورة، هي في كثير من الأحيان، محاولة للإجابة عن أسئلة جوهرية، وحقيقية يطرحها الناس أثناء وقبل تأسيسها، خاصة من القضايا الكبرى التي يجدون أنفسهم أمامها، دون أن يجدوا جوابا لها.

ومن هذه القضايا، الكبرى، مسألة وجود الكون، الخير، والشر، الجمال، التنافس بين الناس، وهذا ما نجد العديد من الأساطير تعبر عنه، وكمثال على هذا النوع من الوظائف، ما كشفت عنه أساطير الخلق: البابلية والمصرية وغيرهما.

ب-توحيد الناس حول ملاحم وبطولات قومية، وجعلها محل فخر واعتزاز بين الشعوب، ولذا وجدنا الشعراء الكبار يساهمون في هذا المسعى، بإنتاج ملاحم تخلد بطولات شعوبهم وتاريخهم في شكل أساطير يتغنى بها الناس ويمجدونها، كما هو شأن الأوديسة والإلياذة لهوميروس، والانيادة لفرجيل، والشهنامة للفردوسي وغير ذلك.

وهكذا أصبحت هاته الملاحم، يتغنى بها الناس، ورمزا لوحدة شعوب، وفخرا بتاريخ الأجداد. ولذا نجد الاهتمام بها، وتناقلها مسألة حياة أو موت، سواء شفاها، أو تدوينا، حتى أنها صارت تراثا قوميا يعلم للأجيال الجديدة، ويبذل في ذلك المال والجهد، وفقا لسياسات ترسم.

ج-تقريب الفهم، للمتلقي والمتحاورين، فكثيرا ما كان فلاسفة اليونان أنفسهم، يستعينون بالأساطير للتعبير عن العديد من أفكارهم التي يظهر عليها الغموض، وهذا ما نقف عليه بصورة أوضح، في محاورات أفلاطون العديدة، التي كانت تناقش معظم المشكلات الفلسفية التي كانت الأساطير من قبل تعالجها.

ولكن هذه المرة، ليس بقصد، الاقتناع برؤية هاته الأساطير وتصوراتها، وإنما بغرض تفسير العديد من النظريات الفلسفية، وفي هذا المجال، يمكن أن نعود لم قدمه أفلاطون، في بعض محاوراته، عندما تحدث عن أسطورة الكهف، فهو كان يريد أن يتمثل مستمعيه، فكرته، من خلال هذه الأسطورة، التي كان يعتبرها مثالا، توضيحيا، من خلاله يريد أن يوصل لمستمعيه، أن هناك عالمين:

- عالم المثل، وهو العالم الحقيقي.

- العالم الحسي، وهو العالم الزائف.

وهو نفس الهدف من أسطورة الجندي آر، التي حاول من خلالها أن يبرهن على أن المعرفة تذكر، والجهل عبارة النسيان.

د-تربية الشعوب، وحثها على اكتساب صفات أبطال الأساطير، وهي فكرة نقف عليها، حتى ولو لم يكن هذا الوقوف مباشرا، إذ نجد أن واضعي هذه الأساطير، يسعون لا يصلح قيم معينة للناس، من خلال ترغيبهم وتحبيهم فيها، وفي الوقت نفسه تحذيرهم، من قيم معينة، من خلال الأبطال الذين يمثلونها.

فمثلا، أساطير هرقل اليونانية، تحاول غرس روح البطولة والفروسية، كقيم محبذة مطلوبة عند اليونانية، كما نجد أساطير أخرى تقدم أصحاب الخيانات، بصورة مستنكرة، تنفر الناس منهم.

وهكذا نستطيع القول، أن الأساطير، وبغض النظر، عن اصنافها ومفاهيمها، فهي تقدم تصورات، وتمجد قيم، وتوحد شعوب.

ومنه يمكننا القول أن الأسطورة وليدة بيئة تاريخية معينة، ومجتمعات مختلفة بغض النظر عن مكانتها في سلم التطور، ولكنها تنشئ في مجتمعات لها عراقمتها واصلتها، لتحقيق جملة من الغايات، تختلف باختلاف واضعها والغرض من وضعها.

قائمة المصادر والمراجع:

Gerard, L. (s.d.). *Vocabulaire bordas de la philosophie*. (bordas, Éd.)

oxford. (2012). *oxford basic english dictionary*. oxford university perss.

أفلاطون. (2004). *الجمهورية*. الإسكندرية: دار الوفاء للنشر والتوزيع.

الزمخشري محمود بن عمر. (1987). *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل* (المجلد 2). بيروت: دار الكتاب العربي.

جميل صليبا. (1981). *المعجم الأول* (المجلد 1). بيروت، لبنان: رولان بارت. (بلا تاريخ). *أسطوريات*. (توفيق قريرة، المترجمون) بغداد: منشورات الجمل.

زيادة معن، و وآخرون. (بلا تاريخ). *الموسوعة الفلسفية العربية، المصاحبات والمفاهيم* (المجلد 3). بيروت: معهد الإنماء العربي.

سيغموند فرويد. (1986). *موسى والتوحيد*. (جورج طرايبشي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة.

فرجيل. (بلا تاريخ). *الإنبيادة*. (عنبرة سلام الخالدي، المترجمون) بيروت: دار العلم للملايين.

معيرش موسى. (2018). *القيم في الفلسفة اليونانية مشكلات وأعلام*. عمان: دار الأيام.

موسى معيرش. (2017). *مقدمة في الانثروبولوجيا العامة*. العلمة، الجزائر: دار الوطن.